الكتب والكتب المؤلفة فيه

والمكاتب فى العالم الاسلامي

الكتب المؤلفة فى الكتب عند المسلمين وحالة المكاتب الاسلامية أمس واليوم في العالم الاسلامى عموما وفى القارة الافريقيه خصوصاً. موضوع من الاهمية بمكان .تناوله العلامة الشهير الشيخ سيدى عبد الحي الكتانى وأعطاه حقه من الدرس والتحقيق فى هذا المقال الذى تفضل به جنابه على المجلة تشجيعاً وافادة . والشيخ نفسه يشير الى اهمية الموضوع والسبب الذى حمله على التصدى اليه وهو الرجل الذى أوقف حياته على خدمة العلم وأهله في مقدمة وجيزة يقول فيها مخاطباً المجمع العلمي العربى بدمشق الفيحاء ان كثيراً من الناس ان لم يكن معظمهم لا يعلمون عن حالة الكتب والمكاتب الوقفية قديماً وحديثا ببلادنا الافريقية الا ما ندر بل صاحب مجلة المقتطف يقول فيها مما يذكر بالاسف ان مؤرخى العرب لم يذكروا تاريخ المكاتب العربية وكل ماذكروه عنها جاء عرضا فى كلامهم على غيرها فرأيت ان من المتعين على القيام بهذا الواجب الذى أغفله المؤرخون راجياً من القراء أن يعلموا اولا انها احرف كتبتها يد مغربية فى المغرب الاقصى حيث لا مكاتب منظمه الا ما ندر ولا وصلات معترف بها الا ما جاء صدفة ولا مجلات دورية تتصل بها الا ما فضل عن سرقة موزعية ولا خلا نسامره أو نداً نشاوره ان هى الا فكرة حلكة وليدة زاوية وراقها رئيس طريقة فان راقت رجال المجمع العلمي فلهم أو لأحدهم أن يقول فى الزوايا خبايا والا فمن جاء على أصله فلا سؤال عليه

يعلم من الخطاب الذي القيناه في المؤتمر العربي السادس المنعقد بالمعهد العلمي بالرباط في قعدة عام ١٣٤٦ ان الكتابة والجمع والنسخ والتدوين في الاسلام ابتدأت تخطو خطواتها التدريجية من بعد الهجرة المحمدية وكان أول ما عرف عنها كتابه عليه السلام في الصدقات الذي كان عند أبي بكر وكتابه في نصاب الزكاة الذي كان عند عمر وكتابه الى أهل اليمن بانواع الفقه وابواب مختلفة ومنها مكاتبه عليه السلام الى الملوك وامراء الاطراف وولاته ونصوصها لا تزال محفوظة الى الآن وافردها بالتاليف جماعة كأبي محمد عبد الله بن علي بن احمد بن حديدة الانصاري في كتابه المصباح المضئ في كتاب النبئ الامي ورسله الى ملوك الارض من عربي وعجمي ومنها أمره عليه السلام بان يقيدوا له في ديوان من أسلم وهو أصل الديوان العمري الذي صار فيما بعد اقتنوما يرجع اليه في معرفة انساب القوم وسوابقهم في الاسلام ومنها جمع أبي بكر وعمر وعثمان القرآن الكريم في مصحف وجعل عمر تابوتا لجمع صكوكه الرسمية ومعاهداته الامية ومنها كتاب علي في سائر العلوم قال الشهاب ابن حجر الهيثمي في شرحه على الهمزية ص ٢٤٨ ان عليا اختلى بعد موت النبئ صلى الله عليه وسلم فكتب كتابا فيه العلوم الجمة حتى قال ابن سيرين لو ظفرت بذلك الكتاب ظفرت بالعلم كله هو منه ومنها كتابة ابن عباس للفتاوي التي كان يسأل عنها وتدوين زيد بن ثابت في الفرائض والمنسك الذي لجابر بن عبد الله الانصاري الى غير ذلك مما جاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص وعلي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود وأبي هريرة وأنس ومعاوية والحرث بن كلدة الى غير ذلك مما جاء عن كبار التابعين كابي الاسود الدؤلي والحسن البصري وزائد بن قدامة وحجر بن عدي الكندي وسليم بن قيس الهلالي وعبيدة بن قيس السلماني وعلي بن أبي رافع وعروة بن الزبير وكعب الحبر وخالد بن يزيد بن معاوية وابن شهاب وعبيد ابن شرية الجرهمي وأبي مخنف الازدي وعوانة بن الحكم الكلبي وزياد

ابن أبيه وعكرمة مولى ابن عباس وأبي قلابة وقتادة السدوسي وأبي العالية والحسن بن محمد بن الحنفية ووهب بن منبه وزيد بن أسلم وغيرهم في باب الكتب والتدوين واتخاذ الكتب

ومما فاتني ذكره في الخطاب المذكور ان الحافظ ابن حجر في الاصابة ترجم في القسم الثالث من حرف العين لعبيد بن شرية الجرهمي قائلا ذكر الرشاطي عن الهمذاني ان معاوية كان مستشرفاً لاخبار حمير فقال له عمرو بن العاص أين انت من عبيد بن شرية فانه اعلم من تعرض لاخبارهم وانسابهم فكتب اليه ياخذ منه الاخبار فألف كتاباً وقد زيد فيه ونقص فلا يوجد منه نسختان مستويتان .

وترجمه ابن النديم في الفهرست وذكر قدومه على معاوية وسؤاله قال فامر معاوية أن يدون وينسب الى عبيد بن شرية قال وله من الكتب كتاب الامثال كتاب الملوك واخبار الماضين ه

وترجم ابن النديم أيضاً لعلامة بن كريم الكلابي فقال كان في ايام يزيد بن معاوية عارفاً بايام العرب واخبارها وهو أحد من اخذت عنه المثالب له كتاب الامثال نحو خمسين ورقة رأيته ه

وترجم لصحار العبدي فقال أحد النسابين والخطباء في أيام معاوية ابن أبي سفيان روي عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثين او ثلاثة وله من الكتب كتاب الامثال

الشيخ عبد الحي الكتاني

وترجم ابن النديم لابي مخنف الازدي أيضاً فقال ابو مخنف لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف بن سليم الازدى من اصحاب علي عليه السلام روي عن النبيء صلى الله عليه وسلم توفي وله من الكتب كتاب الردة كتاب فتوح الشام كتاب فتوح العراق كتاب الجمل كتاب صفين كتاب أهل النهروان والخوارج كتاب الغارات كتاب الحرية بن راشد وبني ناجية كتاب مقتل علي كتاب مقتل صخر بن عدي كتاب مقتل محمد ابن أبي بكر الصديق والاشتر ومحمد بن أبي حذيفة كتاب الشوراء ومقتل عثمان كتاب المستورد بن علقمة كتاب مقتل الحسين عليه السلام كتاب وفاة معاوية وولاية ابنه يزيد ووقعة الحرة وحصار ابن الزبير كتاب المختار ابن أبي عبيد كتاب سليمان بن صرد كتاب مرج راهط وبيعة مروان ومقتل الضحاك بن قيس كتاب مصعب وولايته العراق كتاب مقتل عبد الله بن الزبير كتاب مقتل سعيد بن العاص كتاب حديث يا حميراء ومقتل بن الاشعث كتاب بلال الخارجي كتاب نجدة أبي قبيل كتاب حديث الازارقة آخر ذلك انظر ص ١٣٦ من الفهرست

وفيها أيضا لدى تسمية الكتب المصنفة في تفسير القرآن كتاب الباقر بن علي بن الحسين عليهم السلام رواه عنه ابو الجارود زياد

بن المنذر رئيس الجارودية الزيدية كتاب ابن عباس رواه مجاهد وورق عن ابي نجيح عن مجاهد وقيس بن ميمون عن أبي نجيح عن مجاهد كتاب تفسير أبي حمزة الثمالي واسمه ثابت بن دينار وكنيته دينار ابو صفية وكان ابو حمزة من اصحاب علي بن أبي طالب من النجباء الثقات كتاب التفسير عن زيد بن أسلم بخط السكري كتاب تفسير عكرمة عن ابن عباس كتاب تفسير الحسن بن ابي الحسن البصري انظر ص ٥٠ من الفهرست

وذكر ابن النديم في ترجمة الكتب المؤلفة في نزول القرآن كتاب عكرمة عن ابن عباس وذكر في ترجمة الكتب المؤلفة في احكام القرآن كتاب احكام القرآن للكلبي رواه عن ابن عباس

وفي الفن الخامس من المقالة السادسة في فقهاء الشيعة وما الفوه من الكتب من الفهرست من أصحاب أمير المومنين علي السلام سليم بن قيس الهلالي قال لابان بن عياش انه كان من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم كيت وكيت واعطاه كتابا وهو كتاب سليم بن قيس الهلالي المشهور رواه عنه ابان بن عياش لم يروه غيره عنه وأول كتاب ظهر للشيعة كتاب سليم بن قيس الهلالي اه منها ص ٢٠٧

ولما ترجم ياقوت الحموي في معجم الادباء لخالد بن يزيد بن معاوية قال كان يقول كنت معتنيا بالكتب وما انا من العلماء ولا من الجهال قال ومما نسبوا له من التصانيف في الكيمياء السر البديع في الرمز المنيع وكتاب الفردوس ورسائل اخرى انظر ص ١٦٩ ج ٤ ولاشك انه لولا اقبال الناس في القرن الاول على جمع الكتب لما بلغ الناس في الجمع والتصنيف الى هذه الدرجة والكثرة ولكن الفضل الاول في تكوين المكاتب في الاسلام فيما يظهر لي الى أبي بكر الصديق رضي الله عنه فانه الذي وضع الحجرة الاولى لهذا العمل المشكور بدليل ما رأيته في كتاب التعريف برجال مختصر ابن الحاجب الفرعي للبحاثة المطلع أبي عبدالله محمد بن عبد السلام بن اسحاق الاموي المالكي في ترجمة أبي بكر الصديق قال كان عمر قاضيه وعثمان كاتبه وسعد مولى مصاحفه وسعد القرضي مؤذنه والمصاحف عندهم اذ ذاك الكتب لان المصحف كما في كتب اللغة مثلث الميم الكراسة وحقيقتها مجمع الصحف أوما جمع منها بين دفتي الكتاب المشدود جمع مصاحف فوجود ماذكر عنده يدل على انه كان عنده مايسمى كتبا ولكثرتهم احتاج الى وال يلي أمرهم ويضبطهم ويحضرهم له متى ارادهم فهذه اذاً مكتبة وقيم ولازال يزداد ويكثر امر الكتب الى زمن عمر الذي كان له صندوق اوقاد وس يجمع فيه عهوده مع الامم انظر ص ٧٤ من ج ٢ من خطط مصر للمقريزي

والديوان الذي ضبط عمر فيه الناس على مراتبهم في السبقية والهجرة واصالة النسب الى زمن عثمان رضي الله عنه فبالغ الناس في الاهتمام بالوراقة وتجويد الكتابة والاعتناء بزخرفة الكتب وتبجيلها

وفي البيان والتحصيل للقاضي ابي الوليد ابن رشد قال ابن القاسم واخرج الينا مالك مصحفا لجده فحدثنا انه كتب على عهد عثمان ابن عفان فوجدنا حليته فضة واغشيته من كسوة الكعبة ه

وهذا يدلك دلالة واضحة على ما وصلت اليه حالة الوراقة في القرن الاول من الهجرة وعلمهم بكيفية تحليل الفضة وتحلية الكتب بها وجعل الاغشية لها حتى من كسوة الكعبة بل في زمن عثمان أيضا بلغ بالناس الحال الى ضبط سجلات المرافعات والخصومات والحجج امام المحاكم الشرعية ففي البيان والتحصيل لعالم الاندلس وقاضي قرطبة أبي الوليد ابن رشد قال مالك كان قاض في زمن عثمان وانه رفع اليه كتب تقادم امرها والتبس الشان فيها فاخذها وأحرقها بالنار فقيل لمالك افحسن ذلك قال نعم إني لاراه حسنا

قال ابن رشد معنى هذه الكتب انها كتب في الخصومات طالت المخاصمة فيها والدعاوي وطالت الخصومة حتى التبس أمرها على الحكام فاذا احرقت قيل لهم ماتدعون ودعوا ماتلبسون به من طول خصوماتكم واستانفوا العمل وهو حسن من الحكم على ما استحسنه مالك اه من جامع البيان والتحصيل لابن رشد

وقوله في زمن عثمان هكذا في نسخة عندي من البيان والتحصيل قديمة تملكها جماعة من الاعلام والذي يقتضيه سياق الزقاق في لاميته ابان بن عثمان وذلك في قوله

فقد قال بعض العارفين اذا اختفى
على قاض امر في العقود ولا انجلا
يساغ له التقطيع ان كان يرتجي
به قطع ما يخشى من الطول والبلا

كما عن ابان نجل عثمان قد بدا
من الحرق والتحسين عن مالك صلا

وظاهر كلامه ان ابان هو الذي حرق والذي في العتبية من سماع ابن القاسم وقد كان قاضيا في زمن ابان بن عثمان وانه رفع اليه كتب أي رسوم تقادم عصرها والتبس الشان فيها فاخذها فحرقها وقع ذلك في رسم حاف أن لايبيع سلعة سماها من سماع ابن القاسم من اول اقضية العتبية ونحوه في النهاية للهتيطي

قلت وابان هذا هو ابن عثمان بن عفان تابعي من أهل المدينة سمع اباه وغيره من الصحابة روي عنه هو الزهري وغيره مات بالمدينة زمن يزيد بن عبد الملك بن مروان وكانت وفاة يزيد سنة خمس ومائة من الهجرة

يتبع

العلامة الحجوى

بمناسبة بروز الجزء الرابع من الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي الذي هو من اعظم التآليف التي خطتها الاقلام العربية في هذا العصر أقامت العاصمة الادريسية يوم ١٤ من صفر لصاحب الكتاب المذكور العلامة وزير المعارف سيدي محمد الحجوي صانه الله وحفظه حفلة تكريم حضرها نصراء الثقافة العربية من سائر انحاء الايالة وتجلى فيها العلم الاسلامي في صورة تفرح بالحاضر وتبشر بمستقبل زاهر ان شاء الله

سيدي محمد الحجوى